خدمة المجتمع بين المناهج الدراسية ومنظومة البحث العلمي في كليات الشريعة

أ.د. محمّد خالد اسطنبولي

أستاذ في الفقه،

جامعة أدرار، الجزائر

مقدمة :

تتربع الأمة الإسلامية اليوم على مساحة هائلة في قلب العالم، بل ولها من الثروات والخيرات الشيء الكثير، وفوق هذه الأرض حوالي مليارين من البشر، هذه الأمة التي تدين بالإسلام آخر الأديان، وتشرّفت بأفضل رسول وبرسالة عالمية وشاملة، ومنهج نبوي قويم، ومع هذا كله فهي أضعف أمة فوق الأرض وأفقرها.

جامعات كثيرة جدا في العالم الإسلامي تحوي تخصصات شتى أنشئت لخدمة الإنسان ولعمارة الأرض فهل تحقق هذا؟. ثم إن كليات الشريعة مهمتها خدمة المجتمع من جميع مناحيه، هداية ورفاهية، جسديا وروحيا، ونفسيا واجتماعيا، فهل تحقّق جزء من هذا؟. ثم أسال سؤالا مباشرا: هل هذه الجامعات أنشئت لخدمة المجتمع؟ أم المجتمع يخدم الجامعات؟.

أزمة العقل المسلم:

سبق أن نوهت ونبهت إن الأمة الإسلامية حصلت لها مقاطعة وقطيعة لكل ما هو غير إسلامي– أي غير داخل في العلوم الشرعية–وقد وجدت أن هذه العلوم هي علوم عالمية مفيدة وفعالة في عمومها ولا جنسية لها بل لا دين لها عند بعضهم ولقد قررنا من قبل أن من الضرورة والوجوب الانفتاح على علوم الدنيا كلها مع التدقيق والتمحيص والحذر، وأخص بالذات العلوم الإنسانية والاجتماعية والكونية وقضايا

علم المنهجية وبالذات إنهاج التفكير، الذي نادى به فريد الأنصاري:"لعل من أصعب الأزمات التي تعاني منها الأزمة اليوم، هي غياب العقل المنهجي، أو التفكير الناهج، أي الواضح والبين والمستقيم، فإعادة تشكيل العقل المسلم الذي ننادي به اليوم، إنما هي إعادة نهج له من جديد، أي إقامته على نظام واضح مستقيم، إن الارتجال، والتلقائية غير الواعية في معالجة شؤون الحياة دليل قاطع على غياب الممارسة المنهجية، فإقدامك على الشيء وأنت لا تعلم– قبل الإقدام عليه– لماذا تقدم عليه؛ ولا كيف، ولا أنت تكلف نفسك البحث لمعرفة ذلك إنما هو نوع من تأخير البيان عن وقت الحاجة،....والدخول في عمل من غير تبيين وبيان، هو عين الفوضى التي تلغى مقومات المنهج فيه"[1] وهذه الأزمة عرفها وهضمها واكتوى بنارها الأستاذ أبو شقة ونبه بأن العقل نعمة كبرى، فإذا كانت نعمة الإيمان هي أعظم النعم، فالنعمة التي تليها هي نعمة العقل الواعي الفاحص المتأمل، إذ بدون هذه النعمة لا تحصل تلك، وبدون هذه النعمة لا تعمل تلك عملها الأتم، ثم بدون هذه النعمة لا تستقيم تلك على أمر الله....، وإذا كبل العقل هذا، وسلب حريته فلا بد من تحريره...وما يعني تحرير العقل أكثر من إنقاذه من القيود التي تفرض عليه وتحول دون عمله الحر؟ وهو ما يقوم به الدين الحق...والدين قد يحرر العقل من الأغلال، ولكن ورثة الدين قد يحجرون على العقل ويذلونه بما يلي:

– بتطبيق نطاق عمله وحصره في حفظ المتون.

– أو بإهمال تغذيته بما ينفع لا نظر ولا بحث علمي رشيد، ولا دراسة لرأي المخالفين، ولا جدل، ولا حوار معهم يتحرى الحق.– أو بتقديس السابقين، ومجرد تقديسك عقل غيرك يعني حتما إلغاء عقلك أنت. ويعين العقل على

كمال التحرر، التعليم، تعلم سنن الكون، وتغلب الغيب من الرسل والوحي على أن التعلم غير الحفظ وفير التقليد، والحفظ مسخ للعقل... (2).

وقد حاول الأستاذ أبو شقة تبيين مراحل انحطاط العقل المسلم ثم تعرض لأعراض انحراف العقل المسلم المعاصر، وبين بأن انحراف العقل يعني أن هناك داء قد أصاب الكينونة البشرية، ولتلك الحال أعراض التي تكشف عنها وذكر فيها:

أ- الغفلة عن القواعد الأصولية والقواعد الفقهية، ومن مظاهر هذه الغفلة.

- عدم مراعاة الأولويات.
- عدم مراعاة درجات المصلحة والمفسدة.
- الغفلة عن دراسة الوضع وملاحظة ظواهر عند تقرير الأحكام .
- الغفلة عن ضرورة التعديد، والتنوع والنفور من محاورة المخالف.

ب- الوقوع في بعض المزالق الفكرية الخطيرة.

- التفسير بالرأي دون علم وضوابط.
- الدين يحل جميع مشاكل الحياة — مبدأ قد يفهم خطأ- فيظن الناس أن حياتنا تستغني عن التفكير والعقل.
- الخلط بين ما هو دين مترلي من عند الله وبين ما هو بشري.
- الجهود على صحبة أفراد الجماعات (التعصب) والنفور من الأفكار المحايدة أو المعارضة ومن النقد من الخارج.
- عدم تقدير العلوم الحديثة وإهمال الكلام في الفكر الحديث.

ج- وهناك أعراض أخرى قد تكون نفسية وسلبية أهمها.

- غلبة روح الانهزامية في مواجهة الحضارة الغربية.
- عدم القول برأي لم يسبق أن قال به أحد القدامى.

- الإشغال بالجزئيات عن الكليات.
- تقديم النوافل على الفرائض.
- الإشكالية و الميل عن الأخذ بالأسباب.
- الصّنمية وشخصية المبادئ والأفكار الخلط بين الثوابت والمتغيرات.
- الميل إلى الارتجال وعدم التخطيط.
- النزوع إلى اتهام الأخر.
- فقدان الثقة بالنفس.
- الكسل العقلي.
- توهم التعارض بين الدين وبين العقل والعلم ، وحصر المعرفة في الوحي المنزل وحده، مع إن الوحي ليس وحده ملكا الله، بل العقل والكون كله أيضا ملكا لله.
- عدم تحديد المفاهيم والمصطلحات.
- اليأس من حل بعض المشكلات.

وهناك أعراض أخرى كثيرة يطول ذكرها وأختم بهذا الاهتمام بالتعاريف الحديثة التي لا مفهوم لها ، وحصرها بأمثلة ميتة ودائمة فمثلا فرض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين مثاله صلاة الجنازة... (3).

الرفض المطلق للحضارة:

وفي الحقيقة ليس هناك رفض مطلق للحضارة، فنحن أخذنا من تقنياتها ومن طبها ومن جمالها وزخرفها ثم رفضنا أمور أخرى لا تقل أهمية عن الأولى، رفضنا علم النفس جملة وتفصيلا وفي ذهننا أنه علم النفس هو فرويد، وأن فرويد هو أبو نظرية الجنس فأغلقنا الباب علينا بل ورفضنا علم الاجتماع لأنه هو دوركايم، ورفضنا الدراسات المنهجية لأنها وافدة من الغرب، ينبه أبو شقة إلى هذه المسالة بأن الرفض

المطلق للحضارة الحديثة يعني عدم التعمق في دراسة تلك الحضارة وعدم فهمها، وإذا نحن لم نفهم الحضارة الغربية جيدا وهي السائدة في عالمنا المعاصر، فلن نعي عصرنا جيدا، هذه واحدة.

وما دمنا لم نع عصرنا فلن نفهم الدين الفهم المطلق المنبثق عن عقل هذا العصر، ولن نجتهد الاجتهاد المطابق لظروف العصر هذه الثانية. بل سنعتزل ونتقوقع لنعيش سعداء حالمين أو تعساء بعقلية أجدادنا الأقربين -هذه الثالثة- وهي ثالثة الأسافي.

إننا حين نأخذ عن الغرب ونتجاوز مشاعر الرفض، لن نقف عند العلوم الطبيعية وما نتج عنها من صناعة وتكنولوجيا- بل نأخذ وفي يدينا ميزان الحق — كل جهد عظم في مجال العلوم الإنسانية، ولنحذر التطور الساذج الذي لا يرى الحضارة الإلهية أنظر كتابات وتحليلات أمثال أبي حامد الغزالي في القرن الخامس الهجري، وابن تيمية ومحمد رشيد رضا، وحسن البنا وسيد قطب من أواسط القرن الرابع عشر الهجري.

وإذا جاز لآبائنا الرفض يوم كل الغزو ضاربا وشاملاً (عسكرياً وسياسيا واقتصادياً وثقافيا) لأنه لم يكن هناك سبيل للدراسة والتّمحيص والخيار فأما رفض يساعد على الصمود، وإما قبول يساعد على الاستسلام.

إذا جاز لآبائنا أن يقفوا موقف الدفاع ذاك، يوم كان الغزو وهم محصورون في حصونهم الثقافية المهددة، فإن الدفاع لا يجوز لنا اليوم، ونحن نستطيع أن نقف موقف الدراس الناقد المستفيد من التراث من ناحيته، كما نستطيع أن نقدم الإسلام كقيم رفيعة في وسط حصون الغزاة السابقين من ناحية ثانية.

حتى التعبير بالفكر المستوردة لا أرى فيه ما يكفي لإدانة كل فكرة يأتي من الخارج، والصحيح أن نصف الفكر بمضمونه الصالح أو الفاسد، فكم من فكرة مستورد وصالح، وكم من فكر محلي وفاسد...

ألم يكن الفكر الإسلامي فكرا مستورداً بالنسبة لشعوب سوريا ومصر والمغرب في القرن الأولى الهجري؟ أوليس الفكر الإسلامي اليوم فكر مستورداً بالنسبة لشعوب أسيا وأفريقيا بل وشعوب أوروبا وأمريكا.

إن الحضارة الحديثة خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين أضحت حضارة العالم أمة بعينها وإن أمم العالم بأسرها تسهم في إعداد هذه الحضارة وتطويرها (4).

إن سنة التعارف بين بني الإنسان واجبة قال تعالى" يأيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا" إن التعارف ليس هو التزاور أو الاتصال الأجوف بل هو التقاء للحضارات في قوام مشتركة من غير ذوبان يقول مالك بن نبي: والنهضة الإسلامية تبدو وكأنها تريد أن تتخلص من فوضاها، وهي تتطلع منذ عهد قريب إلى النظام والتنظيم...إن مجتمع ما بعد الموحدين يسعى نحو مرحلة من الحضارة تتسم بتركيب أصل لعبقريته الإسلامية الخالصة مع العبقرية الحديثة.

لكن هذا يقتضي معرفة متعمقة للإنسان وإمكانياته ونقائضه وتقضيا واعيا للقيم الاجتماعية في الإسلام، فعلم النفس وعلم الاجتماع ضروريان إذن للكشف عن القيم الجديدة في النهضة الإسلامية،....وعليه فكلي نعرف الإنسان، ينبغي علينا أن نعرف أنفسنا... (5).

نحن جزء من كل:

في هذه الجزئية ينبه الأستاذ مالك بن نبي بأن العالم الإسلامي ليس طائفة من الخلق منعزلة عما سواها، هفي نادرة على أن تكمل تطورها داخل وعاء مغلق، بل أنه يمثل في رواية الإنسانية دورين يقوم بهما في وقت واحد، دوره فمثلا، ودوره شاهدا هذا الاشتراك المزدوج يفرض عليه واجب التوفيق بين حياته المادية والروحية وبين مصائر الإنسانية، فهو لكي يقوم بدور مؤثر فعال في حركة التطور العالم ينبغي

أن يعرف العالم وأن يعرف نفسه، وأن يعرف الآخرين بنفسه، فيشرع في تقويم قيمة الذاتية، إلى جانب تقويمه لما تملكه البشرية من قيم... (6).

كثير مما ندرسه اليوم يدخل في تاريخ العلوم، ولا يعدو أن يكون مقرر نظريا لا واقع له، بل كثير من البحوث تنجز كماجستير أو دكتوراه أكاديمية أعدت للترقية لا تعدو أن تكون في أغلبها بحوثا لا حياة فيها إلا ما عصم الله. قال عبد المنعم القيعي في قانون الفكر مادة 395: "لا تسمو حياة الفرد حتى يكون جزءا من كل لا يجتمع الكل حتى يكون تاما فيما هو كل به، وفكرة الكل هذه لا يصورها ولا يستوفي معانيها إلا الدين الصحيح.

وفي المادة 397: معرفة النتائج تساعد على التعلم متى بصر المتعلم بمواضع خطة...ونتيجة التعليم يجب أن نستفيد بها من كل ما نحتاج إليه، فإن نسيت بسرعة فلا فائدة من التعليم، وكلما اقتراب المنهج من الواقع كان أثبت في الذاكرة.

المادة 398: لكل مجتمع مواده وهيكله وحياته وصورته، وعلى المصلحين دراسة كل الأحوال والظروف، ولا يقوم بالإصلاح المطلوب إلا ذو المرة السوي، وعليه أن يكون ملما بتعاليم الإسلام، وأن يدرس نفسيه الأفراد وطبيعة المجتمع، والنظم التي توجه سلوكهم ونشاطهم فلا غنى للمصلح عن علم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد والنظم فإن هذه حياتهم والنظم صورة صادقة لها (7).

وهذا أد جابر العلواني يقدم نفس الطرح بأنه الفكر ثمرة سائر مصادر المعرفة والثقافة والخبرة والتجربة والقدرة والمفاهيم والاتجاهات الاجتماعية، يسهم في اتجاه الوحي النازل من السماء بالنسبة للمسلم ...فالفكر.....لشجرة لها كل هذه الجذور والمكونات، فإذا سلمت منطلقات الفكرة ومصادره، واستقامت سبله وصلحت مناهجه، وحسنت غاياته ومقاصده، صلح وصلحت حال حامليه، وإذا

حدث خلل أو فساد في شيء من ذلك فسد الفكر واضطربت الحياة كلها، وتغير كل شيء فيها صار الإنسان قاصر النظر، محدود الآفاق، يتجاوز الكليات إلى الشطائر والجزئيات ويتخطى المقاصد والغايات إلى الفروع والشكليات، يهمل ربط الأسباب بالمسبباب أو ربط المسببات بغير أسبابها فتدخل الإنسان الخرافة ويقبل على الدجل، وتنعدم عنده الأولويات وحين يصبح المجتمع بهذه الحال تنهار التوازنات الاجتماعية، وتتفتح أبواب الصراع بين العناصر المكونة للجماعة والأمة، وينعدم الأمن وتنهار الثقة ويشيع الفساد... (8).

أما عند الالتحاق بالجامعة ينبغي أن تغير الوجهة فهنا التلقين لا يكون هو الأصل، بل يجب التركز على بحوث الفعل وأقصد المناهج الدراسية والبحثية التي تخدم المجتمع ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ونفسياً واسريا وتربويا.

في هذه المرحلة علم المنهجية يأخذ الصادرة فإنهاج الفكر أولا ثم إنهاج العلوم هي بداية فعل البحوث وخدمة المجتمع.

فخريج كلية الشريعة الذي يلقن فهوما فمثلاً فقه الأسرة أو قانون يدرس تدريسا معمقاً فقهياً وقانونياً فهي أحكام تشرب وتجتر أما فقه العلاقات الزوجية والتأهيل الأسري وتربية الأطفال ثم قضايا الاجتماع وما أكثرها، كالتسرب المدرسي وضرب الأطفال والنساء، وقضايا البيئة والقضايا النفسية والتربوية كلها في حكم الغائب.

وفي مقابل هذا أ.د. عليوات سعيد يقسم البحث العلمي وفقاً لطبيعته إلى بحث علمي نظري، وبحث علمي تطبيقي، وبحث علمي نظري وتطبيقي، ثم يمثل للبحث العلمي النظري بالعلوم الإنسانية كالمنطق والفلسفة والتاريخ:ويضيف بقوله:وكثير من جوانب العلوم الإسلامية كعلم الكلام وغيره (10).

ثم أضاف عليوات البحث العلمي النظري التطبيقي و لم يمثل بالعلوم الإسلامية بل مثل بالعلوم الاجتماعية والتكنولوجية...

وهذه النظرة أراها قد تجاوزها الزمن وحتى أ.د عليوات لعله لا يقصد هذا بل إن العلوم الإسلامية لابد أن نصيرها ونبرمجها ونمنهجها دراسة تطبيقية مع نظرية وكذا بحوث تطبيقية تخدم المجتمع والصالح العام، إذا كان الآن في ماليزيا يؤهل المقدمون على الزواج بدورات عملية فلماذا هذا لا يكون، في الجامعة، ولا أكون مبالغا إذا قلت؟ لماذا لا ندخل في كليات الشريعة علم التنمية البشرية الذي هو في أساسه علم التواصل إنسان وإنسان وكون وفيه من الجديد الشيء الكثير وفيه خدمة للمجتمع والإنسانية وهولا يتعارض وعلم الشريعة بل هو تخصص كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم التربية.

بل أختم بنص المقنن الجزائري في المرسوم التنفيذي رقم 98-254 وذلك في المادة 52 " تهدف الأطروحة لنيل الدكتوراه إلى تكريس قدرات المترشح

لتحقيق عمل بحث مبتكر ذي مستوى قيِّم، والمساهمة بصفة معتبرة في جل المشاكل العملية والتكنولوجية والاجتماعية والاقتصادية وجيب أن تقدم الأطروحة بالضرورة مساهمة في تطوير المعارف، أو تؤدي إلى تطبيقات جديدة (11).

واختم هذه الجزئية بأن كل ما جاء في هذا الكون هو لخدمة الإنسان الذي كرمه الله وكلفه بوظيفة حضارية تمكن في خدمة الإنسان نفسه وإعمار الكون وهذه الوظيفة الحضارية الشريفة قد وضحها د. محمد علي التومي بتقسيمه إياها تقسيماً منهجياً إلى مهمتين متلازمتين : المهمة التربوية وهي من مستلزمات الأمانة أو الخلافة أو التكليف وهي المهمة الإيمانية ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ الذاريات 56

وقد علّق ابن عاشور على هذا الآية، فلا جرم أنّ الله أراد من الشرائع كمال الإنسان، وضبط نظامه الاجتماعي في مختلف عصوره، تلك حكمة إنشائه، فاستتبع قوله (ليعبدون) أنه ما خلقهم إلا لتنظيم أمرهم بوقوفهم عند حدود التكاليف التشريعية من الأوامر والنواهي، فعبادة الإنسان ربه لا تخرج عن كونها محققة للمقصد من خلقه وعلة لحصوله عادة (12).

ثم المهمة الثانية وهي المهمة التعمير بناء كان من الطبيعي أن يعتبر التكليف القرآني كل ما يدع من لوازم الاجتماع وأساسياته من مهام الإنسان الضرورية بالالتزام والانضباط والانتظام والأخلاق والعمل، والكل والإنتاج، والاستثمار، وحسن التوظيف وكل ما يتحقق به العمران والتعمير مهمة مقصودة أصالة ليست تبعاً ويحتم د. التومي كلامه بـــ العلاقة بين المهمة التعبدية والمهمة التعميرية ، فعنى هذا أن إنشاء الناس من الأرض وتعلق حياتهم بها وتمكينهم فيها، وجعلها مصدر أقواتهم ومنبع منافعهم وميدان تسابقهم سبب كاف يدعو إلى شكر الله، وعبادته والتقرب إليه بالاستغفار، والتوبة (13).

رجال يصنعون الجامعة أم جامعة تصنع الرجال:

هذه الفكرة الهامة والخطيرة أبدؤها بخاطرة فكلما كنت متوجها لمناقشة رسالة ماجستير أو أطروحة دكتوراه وأنا أحمل معي وزنا ثقيلاً أتعبني وبالمقابل ألتقي مع أساتذة في تخصصات أخرى يحملون أطروحة عدد صفحات قد لا يتعدي خمسون صفحة هذه إشكالية كبيرة جدا بل حتى بعض الجامعات تتعامل بالكم ومن هنا ينبه د.' محمد موسى بابا عمي إلى مسألة جوهرية وخطيرة ويعبر عنها ب في فعل البحوث إلى بحوث الفعل قال فكل بحث يعالج ميول المجتمع وقضاياه.

ويسهم فعليا في تحويلها إلى أحسن، وهو من نوع بحوث الفعل وكل بحث حتى وإن درس الاهتمامات و لم يسهم في تغييرها هو فعل البحث لا غير.... والمنهج العلمي في القرآن يعلمنا أن العلاقة وطيدة بين العلم والعمل (يا أيها الذين أمنوا لم تقولون مالا تفعلون...) وعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم في جوامع كلمه اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزادنا علما. (14)

واختم بهذا النص أن البحث العلمي هو الذي يقدم الإنسانية شيئاً جديداً ويساهم في تطوير المجتمعات ونشر الثقافية والوعي والأخلاق القومية فيها باستمرار وتزداد أهمية البحث، كلما أرتبط بالواقع أكثر فأكثر فيدرس مشكلاته ويقدم الحلول المناسبة له. (15)

الخاتمة:

أختم مداخلتي بأهم النتائج التي توصلت إليها.

هذه المداخلة لا تعطي حلولا ولكن حاولت أن أطرح إشكالات حقيقة وأسئلة محرجة تحتاج إلى جواب وحل يشارك فيه الجميع، أزمة عقل عمت الجميع الجامعات وغيرها.

هل نحن نصنع جامعات وهذا مقصدنا أم ينبغي أن تكون جامعات تصنع الرجال.هل بحوثنا هي بحوث تعالج مشكالنا وأحوالنا ومستقبلنا أم هي فعل بحوث لأجل البحث في مناهجنا الدراسية ومضمونها لخدمة المجتمع أم هي احتطاب معارف إضافية. وأسال الله أن تكون الفكرة قد وصلت والله من وراء القصد.

المراجع

1- أبجديات البحث في العلوم الشرعية أ. د. فريد الأنصاري، 2002م، 1423هـ، دار الكلمة مصر، ص 21، وينظر حول إعادة تشكيل العقل المسلم عماد.

2- نقد العقل المسلم، أبوشقة، ص 04.

3- أزمة العقل المسلم ص 25، بتصرف.

4- أنظر أبو شقة، مرجع سابق، ص 18.

5- أنظر أبو شقة، مرجع سابق، ص 18.

6- وجهة العالم الاسلامي، مالك بن نبي، دار الفكر دمشق، 2010م، ص 153-154 بتصرف.

7- مالك بن نبي، المرجع السابق، ص 16.

8- قانون الفكر الاسلامي، د. عبد المنعم دار الطباعة المحمدية، ص 1981م، ص 231، 232، 235 بتصرف.

9- إسلامية المنهجية والعلوم السلوكية أ.د طه جابر العلواني، ص 22، 23 المؤتمر العالمي الرابع للفكر الاسلامي، ص 1994م- 1425هـ.

10- التعليم الذاتي وتكنولوجيا التعليم والمعلوماتية د. العربي فرحاتي (ص 4-5) بحث مقدم للملتقى الوطني الثاني حول وسائل التعليم الحديثة لتدريس العلوم الإسلامية والإنسانية جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة 2001م.

11- تقنيات البحث العلمي وتحقيق المخطوطات، إعداد أ.د عليوات سعيد مطبوعة في جامعة الأمير مقدمة لطلبة ل م د، 2013-2014، ص 7.

12- مرسوم تنفيذي رقم، المادة منقول من بحث عليوات، ص 10.

13- التحرير والتنوير ابن عاشر، ص 27-28، نقلاً عن بحث التومي.

14- ينظر بحث وظيفة الإنسان الحضارية د. محمد علي التومي، بحث في مجلة جامعة الأمير قسنطينة العدد 5 سنة 1994-1414هـ، ص 193- 2004 بتصرف.

15- أصول كتابة البحث العلمي وتحقيق المخطوطات،دار المعرفة بيروت2001ص 16.